الدين والعلم

في الصورة القلمية التي نشرناها في مقتطف دسمبر الماضي بعنوان «ملك الكتب» استشهد الكاتب بفقرات من مقال جليل كان حضرة الباحث الفاضل اسعد [illegible] قد اتحف به مجلة «الجامعة» منذ نيف وثلاثين سنة وقد طلب الينا جماعة من القراء الذين تهمهم هذه المباحث ان نعيد نشر المقال برمته لما رأوه في فقرة من احكام الفكر فطلبنا الى الاستاذ نقولا شكري أن يعود الى مجلدات الجامعة(1) وينقل المقال المذكور فلبى الطلب ونحن نشكر له عنايته هذه «المحرر»

بين رجال الدين وبعض رجال العلم تناظر قديم العهد يبدأ تاريخهُ من يوم اكتشف العقل البشري أبسط النواميس الطبيعية فوضع بذلك حداً لعبادة الاشياء المحسوسة. والذي يسوء كل معتدل من هذا العداء ما نراه من تطرف كل من الفئتين: الاولى في الاثبات والثانية في الانكار. فمن جهة ترى رجال الدين يبالغون في اثبات مذاهبهم وينزلون جميع عقائدهم وآرائهم — حتى ما كان منها يعارض العقل — منزلة الحقائق اليقينية الراهنة فيقابلهم رجال العلم بالانكار المطلق وقد يتمادون في انكارهم فيجحدون أن هنالك حقيقة قام عليها بنيان الأديان

وعندنا ان العلم مصيب اذ يعمل على دحض ما غشى الدين من الاباطيل والاوهام لانهُ اذا لم يكن من شأن النور ان يضع حداً للظلمة فما يكون شأنهُ يا ترى؟ الا انهُ يخطىء كل الخطأ عند ما ينظر الى العقائد الدينية بعين الازدراء والاحتقار ويحسبها عارية عن كل اساس يحط كثيراً من العقل البشري الذي اذا عنه ورثت الانسانية ما لديها من الحقائق

ومن ذا يا ترى يرى رجلاً من نوابغ بني الانسان كافلاطون وأرسطو وسان تومًا وديكارت ونيوتن وكوزين وغيرهم يشغلون قسماً كبيراً من مؤلفاتهم بالبحث في ما وراء الطبيعة واثبات الاصول الدينية العامة ثم يجرأ بعد ذلك على القول انهم انما كانوا في ما كتبوه من هذا القبيل يحكون أوهاماً بأوهام ويشيدون على غير اساس. أولا يبعث هذا على الريبة بجميع احكام العقل ومدركاته؟

ولسنا نكتفي بهذا القول وحده لاثبات الحقيقة الدينية العامة بل نحن موردون على ذلك أدلة اخرى معتمدين فيها على ما كتبه الفيلسوف هربرت سبنسر اشهر فلاسفة الانجليز في هذا الزمان

اذا امعنت النظر في تواريخ الامم الغابرة ثم عدت بنظرك الى عمران الشعوب الحاضرة ترى انهُ ما من امة من الامم قديمة او حديثة خلت من بعض العقائد الدينية ولئن اختلفت تلك العقائد من حيث نوعها ودرجتها في سلم الارتقاء. فهل يسلم عاقل بوقوع مثل هذا بالمصادفة والاتفاق؟ او ليس من شأنهِ ان يحملنا على ترجيح صحة ما قاله رنان من ان الانسان ديني اعني انهُ ذو نزوع فطري الى الدين

---

(1) مجلة الجامعة: العدد الثامن من المجلد الثالث

الا انهم يعترضون بوجود بعض قبائل همجية لا نجد عندها ادنى فكرة ابتدائية عن علة الكائنات والخليقة والخلق . وان هذه الافكار لم يبد لها أثر للوجود الا بعد أن بلغ الانسان درجة ما من الترقي العقلي فنجيب ولو صح هذا فلا يغير شيئاً من النتيجة التي نرمي اليها لانهُ متى سلمنا ان جميع القبائل التي ارتقت مداركها العقلية بعض الارتقاء وجدت عندها افكار دينية ادركنا ان هذه الافكار تنشأ بالضرورة عن ترقي العقل

وما نراه من التنوع بين العقائد يساعد على تأييد هذه النتيجة اذ انه يدل على أن عقائد كل أمة نشأت مستقلة عن عقائد الاخرى وان وجود الامم الكثيرة في ظروف وأحوال متناسبة مع اختلاف الازمنة والامكنة أدى الى ايجاد افكار متماثلة ونتائج متشابهة

وزعم آخرون ان جميع ما يذكره لنا تاريخ الأديان من العقائد هو مخترعات عرضية وضعها الكهان والزعماء بقصد خداعة العامة والتمويه عليهم وهذا زعم لا يستطاع اثباته اذ لا يتفق ان يقوم عند جميع الامم القديمة والحديثة المتمدنة وغير المتمدنة افراد من الهيئة يتواطأون على خداعة الآخرين وتكون الوسائل التي ينالون بها اربهم متماثلة احوالها كل هذا التماثل

وان قيل ان الاختراع الأول للدين وقع قبل ان تفرقت طوائف الجنس البشري في انحاء الارض وان الجراثيم الدينية انتقلت مع كل قبيلة عند جلائها عن الوطن الاول قلنا ان علماء اشتقاق اللغات ينقدون هذه المزاعم لانهم يثبتون بالادلة ان تفرق الجنس البشري حصل في زمن لم تكن اللغة ارتقت فيه الى درجة يستطاع عندها التعبير عن الافكار الدينية

ومع هذا فلو أمكن وجود ادلة تثبت كون الاديان مخترعات عرضية فلا يمكن بهذا الافتراض التعليل عن كل حادث في الدين لانه اذا كانت الاديان مخترعات جماعات متفرقة من الكهان فلماذا نرى تحت الفروع الدينية المتنوعة أحوالاً ومبادىء متماثلة . واذا كانت جميعها أباطيل واوهاماً فلماذا نرى النقد العلمي الذي استطاع اسقاط العقائد الخاصة لم يتمكن من ضعضعة الفكرة الاساسية التي قامت عليها تلك العقائد . ولماذا نرى العقائد الدينية بعد إذ تسقط سقوطاً عظيماً عند امة كما حدث في أواخر القرن الثامن عشر في فرنسا لا تلبث ان تنهض ثانية ان لم يكن بمظهرها الذي كان لها من قبل فبجوهرها القديم يبقى هو نفسه

ثم هناك من يزعم ان الافكار الدينية هي من نتائج الشعور الديني فهو الذي يجعل العقل يحيك صوراً وهمية لا يلبث ان يتخذها شيئاً فشيئاً حقائق راهنة . وهؤلاء يسلمون ضمناً بوجود الشعور الديني اذ لا يرون سبيلاً لانكار شعور يحس به السواد الاعظم من بني الانسان وقد كان له اعظم أثر في التمدن في العصور التاريخية . وما برح لعهدنا هذا أساس كثير من النظامات الاجتماعية والباعث على كثير من الاعمال العظيمة المفيدة الا ان زعمهم هذا لا يحل المسألة وانما يعيد قليلاً الصعوبة في حلها . لانه سواء كان الشعور الديني منشأ الفكر الديني

او كان للشعور والفكر مصدر واحد فلا بد لنا ان نسأل من اين جاءنا هذا الشعور ؟

وجواباً على هذا نجد أمامنا احد افتراضين : اما ان يكون هذا الشعور خلق دفعة واحدة بفعل خلق خاص واما انه نشأ تدريجياً تبعاً لناموس الارتقاء . فاذا اتبعنا الاول الذي اتبعه الاقدمون وعليه اكثر البشر لعهدنا هذا فالمسألة تكون قد حلّت اذ يكون الانسان قد منح الشعور الديني من مبدع حكيم فهو منطبق ادقّ على مقاصد هذا المبدع . وان اتبعنا الافتراض الثاني وسلمنا بما يوجبه مذهب الارتقاء من ان القوى هي نتيجة التطورات العديدة التي طرأت على الانسان بفعل المؤثرات والاحوال الخارجية عليه نعين ان نسلم بوجود احوال خاصة أوجبت نشأة الشعور الديني ومن ثمّ يكون حكمه حكم سائر القوى النفسية واذا صح ايضاً ما يوجبه مذهب الارتقاء من ان الغاية التي تتجه اليها التطورات الارتقائية هي اعداد الحي لاستعمال ما هو من لوازم وجوده امكننا ان نستنتج من هذا ان الشعور الديني من البواعث المؤدية لسعادة البشر . اذن فسواء كان الشعور الديني خلق دفعة واحدة او نشأ تبعاً لناموس الارتقاء فالنتيجة من كلا الافتراضين توجب علينا احترام الشعور الديني

وهنالك ملاحظة اخرى ينبغي ان نضرب عنها صفحاً وهي ان العلم مهما اتسعت دائرة اكتشافاته فهو عاجز كل العجز عن ان يروي ظمأ العقل البشري الى المعرفة . فمهما أمعنا في الاكتشاف العلمي فانهُ يبقى لدينا ولدى من يأتي بعدنا مسألة وهي : ماذا يوجد بعد ذلك ؟ ومهما تقدمنا في التعليل عن اصل الكائنات فلا يمكننا ان نجد مناصاً من السؤال : ما الذي يعلل لنا التعليل نفسه ؟ فاذا كان العلم هو اشبه بدائرة تتسع شيئاً فشيئاً فنموه لا يكون من شأنهِ الاّ ان يزيد نقط اتصاله بالمجهول الذي يساوره من كل جانب . ويترتب على ذلك ان يوجد على الدوام طريقان ينتهجهما الفكر البشري وهما العلم والدين

اذن فالعقل سيشتغل في الاستقبال كما يشتغل في الحال ليس فقط في البحث عن الحوادث الوضعية وعلائقها بعضها ببعض بل بشيء لا يستطاع اتيانه بالادلة الواقعة تحت الحواس ولا بدّ من افتراض وجوده عند النظر الى الحوادث واعتبار علائقها بعضها ببعض . وينتج عن هذا انه ما دام العلم لا يستطيع وحده ان يشغل جميع القوى الانسانية وما دام العقل يوجه انتباهه ابداً الى ما وراء حدود العلم فسيبقى محل للدين على الدوام لان الدين يمتاز بكون موضوعه وراء دائرة العلم والاختبار . والحاصل من جميع ما تقدم ان وجود الافكار الدينية عند جميع الامم ونشأتها مستقلة بعضها عن بعض وحيويتها المستمرة في المجتمع الانساني ووجود الشعور الديني ايّا كان منشأه واتجاه الفكر الى ما وراء حدود العلم . كل هذا من شأنه ان يثبت ان للدين اصولاً عميقة في الانسان لا سطحية كما يتوهم البعض ويدل على ان هنالك حقيقة اساسية قام عليها بنيان الاديان